د. يوسف طارق السامرائي
كلية الإمام الأعظم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

قد يتناهى الى الأذهان الواعية أو بعضها، أن الشاعر أبا تمام أشبع بحثاً، إذ نهج الباحثون مناهج شتى في دراسته من لدن المرزوقي إلى يومنا، سوى أن الشاعر بحر لاتنفد درره فهو بوصفه شاعراً ينفتح على قراءات مختلفة في كل عصر وعلى ضوء كل منهج .

ونزعم أن الشاعر ابا تمام أدرك ما لم يدركه غيره , وأن شعره هو المفقود الذي وجده أبو تمام والذي أضاعه –فيما بعد– إلى عصرنا الشعراء الآخرون , فشعره إنزاح بعيداً عن المباشرة إلى أقرب نقطة من الانقطاع وصلها شاعر. من دون أن يسقط فيه, وذاك ما اخطأه بعض الشعراء المحدثين– اليوم– حينما سعوا نحو الغرابة فغدا كلامهم اشتاتاً تنأى عن المتلقي , وتشذ منقطعة عن الفهم والتأويل, "فاللغة الشعرية تشغل منزلة وسطاً تتأرجح (كذا) يبين قطبين الأول هو قطب اللغة الشعرية الخالصة .... والأنموذج المثالي المجسد لهذا الجنس هو الخطاب العلمي , والثاني هو قطب اللغة غير المعقولة ... وهذا القطب نقيض الأول, احدهما ذو معنى و الاخر لا معنى له أو غير معقول ... للغة الشعرية علاقة بغير المعقول من جهة خرقها لقانون اللغة, ولكونها تؤول وتستعيد الانسجام والمعقولية فتجتمع بذلك بالقطب الأول"[1]

---

[1] بنيةاللغة الشعرية, جان كوهن,ص٦

شعر أبي تمام خرق قانون اللغة ومضى بها بعيداً من دون ان يسقط في اللامعقول, أو عدم التأويل, وقد ابتعد عن هذا الفهم نقاد وباحثون قدُامى ومحدثون, فهذا د.طه حسين يدعى أن ابا تمام " يشتد في الدقة حتى لا يحُس, وحتى لايرى وحتى لايفهم, لأن ابا تمام كان يحس معناه إحساساً قوياً ولكنه كان – في الوقت نفسه–عاجزاً عن أن يشركنا معه في هذا الحس " والحق أن من يقرأ شعر أبي تمام يحسَّ احساساً واضحاً بأنه كان يشقى في بنائه واستنباط معانيه كما يشقى صيادو اللؤلؤ فهو يتنفس فيه الدم , وكان يشعر بذلك في دقة , فأكثر من وصف أشعاره بالإغراب والغرابة على شاكلة قوله:

خذها مغّربة في الأرض أنســـــة بكـــــل فهـــم غريب حين تغترب

وقوله:

يغدون مغتربات في البـــلاد فمـــا يزلن يؤنسن في الآفاق مغتربـــــــاً

فهو يطلب الإغراب في فنه , حتى يسبغ على شعره كل ما يمكن من آيـــات الفتنة والروعة , وقد عاش لصناعته ينميها ويخلع عليها كل ما يمكن من وســـائل الزخرف والتصنيع"[1]

لذا كانت الغرابة والغوص على المعاني, هي ما يمكن ان نصف بهما شعر أبي تمام الانقطاع كما ذكر د.طه حسين متابعاً في ذلك بعض النقاد القـــدامى, فـــي حين أن التناقض في فهم اسلوب الشاعر , ربما مرده إلى موروث يتهم أبـــا تمـــام بالفلسفة, فقد ذهب اكثر من ناقد إلى أن الشاعر أبا تمام ادخل الفلسفة في شعره, إذ " يدخل

---

(٢)من حديث الشعر والنثر,ص١٠٥.

[1] الفن ومذاهبه في الشعر العربي ,د.شوقي صيف,ص٢٦٦

أبو تمام الغموض والدقة والفلسفة[١] في الفن , فلا يناقشه النقاد في أصول هـذا العمـل , وانما يناقشونه في اسلوب ملتو أو عبارة غريبة أو صورة غير مألوفة , وما ينساب فيـه من تلك الينابيع الفلسفية الثقافية التي تلون شعره بألوان خاصه "[٢]

ويرى آخر أن الشاعر أبا تمام ((استخدم (كذا) في صناعة هذا النسـيج المنمق وشي التصنيع القديم, ونقصد ما كان يعتمد عليه الشاعر العباسي من وشي في تطريز شعره وتنميقه, وسنرى أبا تمام يُضيف اليها وشياً آخـر مـن الثقافـة والفلسفة"[٣] لا نرى أن التلوينات أو الصور الجديدة التي أوردها أبـو تمـام كـان مردها الفلسفة , بل كان الشاعر قد سبق عصره, فقد استغرق في حياة ذات ألـوان متداخلة, وتشكيلات لونية مكانية زمانيه متجددة استنبطها الشاعر بذهن متفـتح , سواء أكان متأثراً بالصور في القرآن الكريم, أم بالثقافات الواسعة التي لفت عصره, لذلك استوطنه منهج يجهد فيه مبتعداً عن سياقات الفها معاصروه, فتلقـاه عصـره بقبول حذر منبهراً بشاعريته, وإن وقفوا حائرين أو رافضين صوره المتقدمة على عصره.

القارئ للشاعر يستشرف وعياً متقدماً , وحساً شـعرياً مفـرداً, إذ نجـد التداخل المشهدي, فلا مظهر للتمايز بين الحدود المتعارف عليها , فالالوان متداخلة, والاشكال متراقصة, فلا انتماء إلى زمان أو مكان فيزيـائيين, بـل أن الصـورة

---

[١] أطلق بعض النقاد الفلسفة جزافاً على شعره، واستقصاء ذلك الشعر لايشي بالفلسفة منهجاً بل هي الفاظ قليلة مما يستعمله الفلاسفه قد تناثرت في ابيات يتيمة .

[٢] المصدر نفسه، ص٢٤٣-٢٤٤.

[٣] الشعر والشعراء في العصر العباسي، د. مصطفى الشكعة ، ص١٥٤.

تفجؤنا تصرخ فينا , أن نصحو على فجر لم نعهده, بعيداً عن الألفة, وأن نرمي زاهدين ما عهدناه من أشكال نمطية.

ثنائية اللون والزمان:

من غير المبالغة قولنا ان شعر أبي تمام يمثل ربيع الفكر العربي, فأشعاره كالاطياف التي تنازعنا في اليقظة والمنام, وصوره تكتسب عمقاً وبعداً في الفكر والخيال, بما يُضفي عليها من الوان خافتة وقاتمة, بل متداخلة لايمكن فصلها, أو ملاحقة منابعها.

يقول أبو تمام:[1]

يوم فتح سقى اسُودَ الضواحي كثب[*] الموت رائباً وحليباً

في البيت مقابلة من نوع مختلف بين الابيض والاسود, فالفتح ابيض بمايشكله الانتصار من بهجة تحدث أثراً نفسياً ساراً, ثم معادله الرائب والحليب وكلاهما ابيض, وهذا الابيض أضيف إلى الموت (الاسود), فالصورة رسمت بلونين متضادين لهما آرتباطهما النفسي الشعوري , فيها ينتصر الفتح (الابيض) على الموت (الاسود),سواء أكان ذلك بتكرار مظاهر اللون الأبيض, أم بانتصار البياض على السواد حيث سُقي الأسود بالحليب الأبيض, وهو عين ما اراده أبو تمام, فهو يتحدث عن الفتح , ومن يتحدث عن الفتح عليه أن يتناسى الام الموت وسواده، إذ أضاع الشاعر(اللون الأسود) في التمازج اللوني.

---

[1] ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي, ١٧٩/١

[*] كثب: جمع كثيبة, وهو اللبن المجتمع, ينظر القاموس المحيط /كثب

ومنه قوله :

حتى إذا اسود الزمان توضحوا فيه فغودر وهو فيهم أبلق

انكر الآمدي هذه الصورة التي جعل فيها الزمان أبلقا"[1] من منا لايشعر أن الزمان أبلق, فالوصف حقيقي كامن في مشاعرنا, إذ إن الزمان يضحك لنا ويضحك علينا, فهو في اقبال وإدبار , وأي شيء سوى الأبلق الذي يخالط فيه السواد البياض ينطبق على هذا التقلب, والشاعر تنبه ايضاً الى الفعل الإنساني النبيل الذي يتصدى للاسود من الزمان فيخفف من سواده , لتبقى الصورة بعيدة عن الالفه في لفظها, وهي تزاح مشكلة من ابعاد الوعي الانساني العميق.

وقوله:

نضاً * ضوؤها صبغ الدجنة فانطوى لبهجتها ثوب الظلال المجزع

إن الصورة في البيت – تفيض بالخيال , إذ ان صاحبته تخلع صبغ الليل بنورها ليصبغ بلون بهجتها الأبيض, فالصورة ترسم بين الأبيض والاسود , إذ يخلع ضوؤها السواد ويطوي الظلال, ومنه قوله:

بيضاء تسري في الظلام فيكتسي نوراً وتسرب في الضياء فيظلم

يتصور الظلال مشرقة إشراق الشمس, وهو يتصور الضياء مظلماً ظلال الليل , وهو يشوه في الوان الطبيعة تشويهاً يزينها , فإذا الظلال مشرقة , وإذا الأضواء مظلمة"[2]

---

[1] ٢–الفن ومذاهبه في الشعر العربي, د. شوقي ضيف , ص٢٣٧.

* نضا: خلع

** المجزع: المختلط سواده ببياض.

[2] المصدر نفسه، ص٢٥٢–٢٥٣.

والظلال مشرقة ايضاً في قوله:

وظلا لهنَّ المشرقـــات بخـــرد بيض كواعب غامضات الأكعـــب

جعل الظلال مشرقات وانما الإشراق للشموس , وهذا من صنعة الشعر إلا إنه وصف الظلال بما توصف به الشموس".[1]

حقائق الأشياء عند أبي تمام تتبدَّل وتنقلب على ضوء نظرتهِ الخلاَّقة الـى الحياة, فعندما تُشرق الظلال فتلك رؤيا مختلفة , إذ أصل الاشراق للشمس , وكـذاك تشبيهه النساء المحتشمات اللائي يضعن الخمار على وجوههن بالاشراق , علـى الرغم من العتمة , ولربما السواد الذي يغطي تلك الوجوه , غير أنه تنبِّـه إلـى ان العفَّة والتحصَّن هو الذي أظهر الإشراق، فليس المظهـر المـادي الـداعي لـذاك الإشراق, وإنما المظهر الروحي الخالص , فهو إشراق نفسي.

هذا البياض النفسي المدرك , يتكرر, فيقول :

ألبستُ فوق بياض مجدك نعمة بيضاء شرع في سواد الحاســـد

هنا تصوير عبَّر عن غيظ الحاسد بالسواد , ووصف نعمة صاحبه بالبياض وجعل البياض يسُرع في السواد وينشر فيه"[2]

غير ان المرزوقي على وفق نظرته المقننة باساليب عصره لم يسـتطع ان يربط بين هذه التشكيلات اللونية , إذ يقول (يجوز أن يكون في شخص الحاسد, لأنَّ

[1] ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي ,٩٩/١.

[2] الفن ومذاهبه في الشعر العربي، د. شوقي ضيف،ص٢٣١.

سواد كلِّ شيء شخصه ,أي انها تتلفه إذا صارت غصة في صدره, ويجوز أن يكون سويداء قلبه , والمعنى أن ذلك صار كمداً في قلبه) [١]

من الواضح أن المرزقي مترددفي قبول أوفهم ما أراده الشاعر , غيـر أن أبا تمام أراد من هذه الثنائية الضديه , الأبيض بما يحمله من نقاء وشفا فية ودلالة على الطهر والعفاف , والأسود بما يحمله من عتمة وظلام وظلم(وهو الحسد بمـا يحدثة من ضرر) فالطرفان متناقضان , فهما ممدوح في مقابلة حاسد لاينفـك عـن سوداه.

وقد تكرر ايراده المظاهر النفسية المدركة موشحة بألوان محسوسـة تمـنح تلـك المظاهر الواناً تتراوح بين السواد والبياض , على ما في تلك المظاهر من خيـر أو شر,

يقول[٢]:

ستصبحُ العيسُ والليال عند فتىً كثير ذكر الرضا في ساعة الغضَبِ

في البيت مقابلة بين السواد والبياض, غير أنها مقابلة لطيفة ,فلـم يـورد الشاعر الألوان ساذجة مباشرة تشي بمعناها , بل تلطف في ايراده كلمة (تصـبح) التي تعني الدخول في الصباح متصلة بالعيس التي يعلوها البياض ((فالعيس جمع اعيس وعيساء, وهي الإبل التي يعلو بياضها شقرة))[٣] وبالتالي تتفوق صـورة الصباح الأبيض على السواد , وهو عين ما أراده الشاعر مـن وصـف الممـدوح بكثرة الرضا(المظهر الابيض), في مقابل الغضب (المظهر الاسود).

---

[١] ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي,٤٠٨/١.

[٢] المصدر نفسه: ١١٨/١.

[٣] المكان نفسه.

ثنائية اللون والمكان:

لا تنحصر لفظة (المكان) بالحيز المكاني المشاهد , فاللفظة ابعد من ذلك تصوراً فهي اشمل من ذاك الحيِّز المنظور, إذ تدخل في مضمونها الأجسام والاشكال والمظاهر أو الاحجام التي تشغل ذاك الحيز , متمثلة في ملبس أو شكل أو موضع أو آلة أو سواها، يقول ابو تمام:

كم أهدت الخضراء في أحمالها للأرض من تحف ومن ألطاف

فكأنني بالروض قد أجلى لها عن حُلَّةٍ من وشيه افواف

بعضهم يستعمل الأفواف في معنى الألوان المختلفة , ومنهم من يزعم أنه البياض فإنهم إذا قالوا برد مفوَّف , فإنما يريدون أن فيه مواضع بيضاً من الوان مختلفة غير البياض,والفوف والفوفة بياض يكون في الظهر"[1]

يذكر التبريزي للأفواف معنيين, الأول يدل على ان الالوان مختلفة, والثاني يُشير إلى البياض منفرداً, غير ان معنى البيتين يشيِ بالمعنى الأول فالالوان متراقصة تتناوس في تلك الرياض المزدهرة، إذ جعل الشاعر تلك الرياض متحفاً يعرض , شتى الالوان وكأني بتلك الالوان تفوح شذاً وعطراً نستنشقه من تلك اللوحة الخلابة التي رسمها الشاعر لتلك الرياض.

ويقول أبو تمام ايضا[2]

كأنهم وقلنسي البيض فوقهم يوم الهياج بدور قلنست شهباً

---

[1] ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي,٢/٣٩١.

[2] المصدر نفسه, ١/٣٧٧

إنها ساحة المعركة هي الصورة التي رسمها أبو تمام في البيت, ولكن الشاعر لم يغرق في مشاهد المعركة لينقل لنا صهيل الجياد أو قراع السيوف أو غبار المعركة أو الدم المسفوح على جنباتها, بل انتقل إلى فضاء واسع حيث البدور والشهب, لينقل الممدوح من تلك الصورة الكئيبة السوداء ,إلى صورة ناصعة البياض تلفها ملامح النور والضياء, لتضفي على المشهد المرسوم جواهر البهاء والجلال.

ويعود ثانية إلى المعركة فيصفها قائلاً [1]

تفرج عنهم الغمرات بيض جلاد تحت قسطلة[*] الجلاد

لننظر إلى شطري البيت، وكيف اصطفت الصور بين انفراج الغمرات، وما فيها من انتصار وفرحة تملأ القلوب المحبَّة سروراً وابتهاجاً، في مُقابلة قسطلة الجلاد التي خاضوها حتَّى تفَّرجت تلك الغمرات، فتلك الغمرات تستظل تحت غبار المعارك بما في المشهد من اختلاط وتشابك وامتزاج لوني.

ويستمر مصوراً اجواء المعركة، وواصفاً فرسانها فيقول [2]

كم بين حيطانها من فارس بطل قاني الذوائب من آبي دم سرب

نسب الشاعر-هنا- الحمرة الى الذوائب. والذوائب لاتحمر وانما هي سوداء وبيضاء حين تشيب، غير أن الشاعر استعار الحمرة لوناً للذوائب دلالة على

---

[1] المكان نفسه.

[*] قسطلة:غبار المعارك.

[2] ديوان ابي تمام بشرح الخطيب التبريزي.١/٥٧.

موته بحد السيوف ، مما يؤكد أن ثقافة الشاعر ودلالات الكلمة الشعورية هي التي أوحت بهذا الوصف لا دلالة الكلمة الحقيقية، فالاحمر ينسب للدم لا للشعر.

ثم يقول[1]

إن الحمامين من بيض ومن سمر دلو الحياتين من ماء ومن عشب

لا تُنال لذة الأكل والشراب أو متع الحياة الرخية الهادئة الناعمة إلا بالرماح والسيوف، هكذا يرى أبو تمام، والشاعر يعمد في ذلك إلى لفظتين يختارها من بين الالفاظ الكثيرة التي يحفل بها المعجم اللغوي للفظتي السيف والرمح فيختار الضدين (البيض ، والسمر)، ليدلل بعمق على ان الحياة هي محصورة في هذين اللونين، فإما حياة عزَّ بيضاء لا تشوبها شوائب الاضطهاد أو السيطرة، وإما حياة ذلٍّ تسْوَدُّ الوجوه فيها، وتضيق الصدور بانفاسها، فيظهر جلياً وعي الشاعر بأثر تلك الثنائيات في أوجه الحياة المختلفة.

ويُدخل أبو تمام الحركة اللونية الفاعلة في التأثير في المتلقي، فنجد أن الأصفر من الألوان التي تناسب المرض والضعف والوهن، فالشاعر يستغل المرجعية المطلوبة في ايراده هذا اللون ليضفيها على اعداء الممدوح، فيقول:

أبقت بني الأصفر الممراض كاسمهم صفر الوجوه وجلَت اوجه العرب

الروم يُقال لهم بنو الأصفر ... وقال الممراض ليدل على أن صفرتة كانت من مرض ... وقال كاسمهم يريد اسم أبيهم، على المجاز لأنهم إذا ذكروا قيل بنو الاصفر، فعرفوا بذلك فصار كالاسم لهم [2]

---

[1] المكان نفسه.

[2] ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي١/٧٩.

في البيت اكثر الشاعر من أيراد (الأصفر)، (صفر الوجوه)، ليشير بتلك الإيحاءات اللونية، على هوان وضعف العدو، فالأصفر يوحي بالمرض أو الضعف الشديد، وبذلك يقابل بين لونين(اصفر شاحب) في مقابلة (ابيض جلي)، ومن خلال تلك المعادلة اللونية، يتعمق الجو الإيحائي والشعوري لدى المتلقي بغلبة الصفاء والبياض على الأصفر الممراض، وهذا مما لاشك فيه يؤثر تأثيراً إيجابيا في الممدوح، وينال في المقابل من عدوه.

التداخل الزمكاني اللوني:

من ينعم النظر يجد في الغالب– الزمان مقيداً بمكان، فليس من زمان مطلق، أو مكان منطلق من قيد الزمان، والى هذا أشارت النظرية النسبية حيث وضحت ذاك التداخل الزمكاني، من هنا نجد أن التداخل هو سمة طبيعية تطغى على حقائق الأشياء ومسمياتها، فالزمان المسرح المتغير لايخلع رداء المكان، فنحن نقول التقيتك على تمام الساعة، فالزمان لا يأتينا إلا معتلياً المكان، والمكان هو المغيب الحاضر فنحن نقول التقيك على الذي لا نستطيع الإلمام به إلا وهو متداخل في الزمان. إلى ذلك كله انتبه أبو تمام فراح بوعي واضح يشدُّ خيوط الثنائية، ليس وعي انشتاين النسبي، و انما وعي الفنان الرسام المبدع.

من ذلك قوله :

أما وأبي الرجاء لقد ركبنا مطايا الدهر من بيضٍ وسود

فقد استخدم (كذا) التدبيج للرمز عن حوادث الدهر النحس منهـا والسـعيد بتصويره لتلك المطايا من بيض وسود، وعلى هذا فأن أبا تمام يذهب هذا المـذهب الرمزي في التعبير عن المعاني والأفكـار بالصـور والأخيلـة الحسـية والألـوان

الأسود والأبيض لونان اثيران لدى الشاعر أبي تمام ، وهـو يتخـذ مـن المطايا رمزاً للمكان الذي يحمل عليه الزمان، ففي قراءته للدنيا وما مر عليه فيهـا من سعد ومن نحس فهي بين الأبيض والأسود، وهكذا هي الحياة بالنسبة لنا جميعاً، فالشاعرإنساني في تصوره.

ويعـود التلاعـب بثلاثيـة الزمـان والمكـان واللـون فيقـول[٢] :

جلوت الدجى عن اذربيجان بعدمـا تردَّت بلون كالغمامـة أربـد*

وكانت وليس الصبحُ فيها يا بيض فـأمست وليس الليلُ فيها بأسـودِ

في البيتين يتلاعب الشاعر بالاسود والأبـيض، وهمـا يلبسـان المكـان والزمان، إذ يوردهما بأشكال جديدة مؤثرة في الملتقي، فهو يذكر النصر وقد غـدا غاسلاً ومجلياً أذربيجان، ولم يعد الصبح ابيضا ولا كان الليل اسـوداً، إذ اسـتيقظت المدينة وقد تلوَّنت بألوان مُغايرة، فكأنها بُعثت من جديد، على غير لون ألفته، وعلى غير منظرٍ أُلبِسْتهُ.

هذه المغايرة نجدها في اكثر من موضع، يقول أبو تمام:

---

(١) الفن ومذاهبه في الشعر العربي، د . شوقي ضيف،ص٢٤٩.

(٢) ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي,٦٩/١.

* اربد: قاتم

مطر يذوب الصحـــــو منه ...* وصحو يكاد من النضارة يمطر

...العلاقات بين المطر والصحو، التي تتجلى –هنا – في ضوء جديد خـــارج علـــى طبيعة كل منهما... ثم إن تولد الصحو من المطر هو تولد للشيء من نقيضه، بمـــا في ذلك من فجوة مسافة توتر حادة تنبع من التوحيد بين طرفي ثنائية ضدية، ومن انقسام الواحد إلى اثنين في الوقت نفسه(١)

حقائق الأشياء عند أبي تمام مغايرة تماماً فالصحو النظـــر يكـــاد يمطـــر، والمطر يُذيب الصحو، والصورة لا ترى ولا تكاد تتصور لشدَّةِ ألقها وتعاليها علـــى المشهد المنظور. وإذا ما عدنا إلى المشهد اللوني المتخيل عند أبي تمام، فنجد مـــن جديد الليل وقد غدا اخضراً، يقول:

كأن ســـــوادَ الليل ثم اخضـــــراره طيالسة ســـــــود لها كفف خضـــــــر

أهم جوانب التصنيع الذي كان يستخدمها (كذا) أبو تمام جانب التصـــوير الذي يمتزج بألوان إبداعية... بحيث لاتتجمع طائفة من صوره حتى تخرج لنا منهـــا أصباغ تحاكي اصباغ الطيف ألواناً حسية ملموسة))(٢) من البدهي القـــول أن رؤيـــا أبي تمام اللونية غير معهودة، فالسواد رمز للشر والظلمة والعتمة، والبياض ابتهاج وفرح وانتصار، والخضرة جمال وخير وسؤدد، والذي يفجأ هو اصـــطباغ الالـــوان على غير ما ألفه الملتقي، فالليل اخضر ، فصورة الليل الأخضر تنم أول وهلة عن

---

* في الديوان مطر يذوب الصحو منه وبعده صحو يكاد من الغضارة يمطرُ

ينظر ديوان ابي تمام، بشرح الخطيب التبريزي, ٢/ ١٩٢.

(١)في الشعرية, د. كمال أبو ديب، ص٣٤-٣٣.

(٢) الفن ومذهب في الشعر العربي،د. شوقي ضيف، ص٢٣٢.

غرابة، إذا أننا لو تتبعنا التدرج اللوني لهذا الليل قبيل الفجر لما وجدنا مثل هذا اللون في ألوان الطيف التي تبدأ مع أول خيوط الفجر، حينما يتسلل بهدوء بين خيوط الليل التي آلت إلى الخفوت، هنا يبقى لنا أن تتبين رؤيا أبي تمام لوصف الليل بالخضرة؛إذ نجد أن هذا ربما انبعث من رؤيا متفائلة تكون قد طرأت على ما كان يجيش في صدره، أوفي صدر غيره من أن الليل أسود؛ إذا أن هذه هي حقيقة مجرَّدة، في حين أن لبا تمام لاينطق بالحقائق كما هي،بل يكسوها بجلبابٍ من رؤيته الذاتية، ويوشحها بديباجة من إبداعه.

من ذلك قوله:[1]

لمّا بكت مُقل السحاب حيا ضحكت حواشي خده الترب

فكأنه صبح تبسم عن سحرٍ ضئيل في ضحى شحبِ

في هذين البيتين نبض يتكرر؛ فهو يصفُ الضحى بالشحوب في تداخل لطيف بين السحب الماطرة بُكاءً لتسقي الأرض المبتسمة جذلاً؛ ليدخل في نقلة زمانية لونية الصباح الضاحك الكاشف عن شحوب الضحى، فنجد هذه المناقلات الزمكانية اللونية في صورة والوان جديدة، وكأنما هناك وشائج بين تلك القطرات المتساقطة بما تعكسه بلوراتها من صفاء لوني وبين الاسنان في نصاعتها وبياضها،وتلك الصورة المقابلة بين خد الترب ومقل السحاب فمثل هذه الصورة لتعجب من يتعمق فيها ويخط بذهنه قبل يده خطوطاً من التأثر العميق.

ومن التداخل الزمكاني اللوني،وقوله:

تردَّى ثيابَ الموتِ حمرا فما دجى لها الليلُ إلا وهي من سندسٍ خضرِ

[1] ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، ٣٦/١.

جنح إلى التدبيج ليستمد منه ما يُريد من الرمز عن أفكاره ألاتراه يعبر عن قتل ابن حميد بتلك الثياب الحمراءالتي غرقت في اصباغ الدم حتى إذا دجى الليل وأظلم القبر أبدله منها ثياباً سندسيه خضراء ليعبر عن رضوان ربّه))[1]

نلحظ الالتفات إلى قوله تعالى:((عليهم ثياب سندس خضرٌ واستبرق وحلّوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شراباً طهوراً))* ، واذا ما تتبعنا الصورة ورشحنا عناصرها محللين وجدنا أن أطيافها متنوعة متداخلة بين زمان ومكان ولون ، فالمشهد الأول ثياب الموت(سوداء) وشّحت(بالأحمر) دلالة القتل، ثم الدجى (الاسود)، فالمشهد الأول قاتم يغلب عليه(الأسود × الأحمر × الأبيض).

ثم يقابله المشهد الثاني وفيه، الليل(اسود)، والسندس(أخضر)، ثم الشهادة (بيضاء) وان لم يصرح بها بل ذكرت تلميحاً.فالمشهد متكون من الالوان(الاسود،الأخضر،الأبيض).

في الصورة مشهدان، مشهد الظلمة والعتمة والدم وغبار المعركة ينتشر في المكان، ثم مشهد الفرح والسرور والخير والسؤدد والفوز بالجنة.صور أبو تمام المشهد الأول وقد طغى عليه السواد بما فيه من عتمة ونكوص وظلمة، وكذا اللون الأحمر بما فيه من رهبه وخوف ولون للدم، ثم أورد المشهد الثاني (الذي أراد له أن يتفوق على مشهده الأول) حيث الخضرة، خضره السندس الفوز بالجنَّة، والأبيض بما فيه من بهجة وفرح وانتصار، فالشاعر أراد للمشهد الثاني أن يطغى على المشهد الأول، فأضفى اللوان البهجة، واغدق عنوانات الفرح والفوز عليه.

---

[1] الفن ومذاهبه في الشعر العربي، د. شوقي ضيف،ص٢٤٨.

* الإنسان/٢١.

التجديد في رسم الصورة الشعرية:

يُعُّد أبو تمام من أوائل المجددين في رسم الصورة الشعرية، فالشاعر لم يستند إلى الأوصاف الجاهزة أو المعلّبة ولم يتعكز على الصور المكرره، وانما سعى حثيثاً نحو أُطر جديدة، ومضامين مبدعة، فأبو تمام "عالج المعاني الجديدة وفتق أكمامها كما تفتق شمس الربيع أكمام الأزهار، وازاح عنها غُبار السنين كما تنزاح الأتربة عن وجوه الجواهر"[١]

ومن المعاني الجديدة التي فتق اكمامها ابو تمام، قوله:

إلى الحسنِ اقتدنا ركائبَ صيَّرت لها الحزنَ من أرضِ الفلاة ركائِبا

هذه الركائب قد ركبت الأرض فالأرض ركائب لها[٢]

اعتمد المشهد على التلاعب في فكرة الثابت والمتحول، فهذه الأرض لم تعد ثابتة، بل غدت متحولة منتقلة تنتقل بانتقال الممدوح، فالأرض جميعاً راغبة في أن تسعى إلى ذاك الممدوح، ليدلك على عمق الرغبة التي ملكت من على الأرض لتغدو الأرض ومن عليها في شوق وتلهف إلى الممدوح، ولاشك في أن الصورة حادثة مبدعة ، فيها انسنة للأرض واخراج من اطارها الثابت المألوف.

---

[١] الشعر والشعراء في العصر العباسي، د. مصطفى الشكعة،ص٦٥٤.

[٢] ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي،١٢/٢.

ويقول:

أطـــلَّ على كُلى الآفاق حتَّـــــى كـــأنَّ الأرضَ في عينيـــهِ دار

(كلي) جمع كلية، واستعارة للآفاق، لأنَّ من أطَّلع على كلية الشيء، فقد خبر أمره، إذا كانت الكلية لا تكون إلا في الباطن[1]

إن استعارة الكلى الحيوانية إلى الأفاق هو تجسيم لها، إذ جعل من الآفاق كائناً مشاهداً، ليدلل على بعد نظر الممدوح، وعلى قدرته على التعمق في أصل الأشياء، فهو لا يكتفي بالاطلاع على المظهر بل يتعمّق في الجوهر، وبالتالي فأنَّ تجسيم الآفاق وتحويلها إلى مشاهد مرئي ينضج فكرة القدرة الاستشرافية التي يتمتع بها الممدوح.

ويقول ايضاً[2]:

حتَّـــى غـــدت وهداتُها ونجادُها فئتين فـــي حُلَلِ الربيع تبَخَتْـــرَ

هل لنا أن نتصور كيف رسم الشاعر هذه الصورة التشخيصية، وكيف تحولت تلك الوهاد والنجاد بما تحمله من خضره ربيعية متبخترتين في حلتها الربيعية البهية، ماذا علينا لو رسمنا هذه الصورة، فكيف سنرسمها بل كيف سنتخيلها وهاداً و نجاداً تتبختر على حجمها وجمالها، من هذا الذي يستطيع أن يرسم مثل هذه الصورة، إنها صورة –ولاشك رائعة في إبداعها غريبة في وصفها، والأغراب هذا التداخل بين الزمان والمكان في صورة الشاعر وهداتها ونجادها، وحلل الربيع.

---

[1] ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي،١/ ١٤٩.

[2] المصدر نفسه، ١٣٦/٢.

ويقول:

فضربت الشتاء في اخدعيـــــه* ضربةً غادرته قوداً ركوبـــــاً

إن البيت من دون شك طريف، إذ جعل أبو تمام الشتاء بوعوثــة ثلوجــه فرساً جامحاً، وجعل انتصار أبي سعيد فيه كأنه ضربة سددت إليــه، فقضــت علــى جموحه وشراسته، وإذا رجعنا إلى البيت في الديوان وجدنا معه ابياتاً رائعة تكمــل هذا الانتصار الذي رفع به أبو سعيد رلس الدوله العباسية في صراعها مــع دولــة الروم[١]

ويتم الصورة فيقول:

لقد انصعت والشتاء له وجـــــــــ ــه يراه الرجال جهمـــــاً قطوبَـــا

طاعناً منحر الشمـــال متيجـــــاً لبلادِ العــدو موتـــــــاً جنوبـــــاً

في قطعة بديعة، تصور اعداء أبي سعيد في الشمال ومعهم الثلوج، وهــو يقتحم عليها من الجنوب معاقلهم فيحطمها تحطيماً))[٢]

يضيف الدكتور شوقي ضيف بالقول((تحول أبو تمام بوصفه الابطال الذين تغنى بمديحهم وانتصاراتهم إلى ملاحم كبرى جسم فيها بطــولتهم تجســيما يشــعل الحماس في قلب كُلّ عربي، ويضرمها إضراماً))[٣]

---

* الأخدع: عرق في صفحة العنق.

[١] الفن ومذاهبه في الشعر العربي رد. شوقي ضيف، ص٢٣٥.

[٢] ديوان أبي تمام بشرح التبريزي،١/١٧٣-٣٧٤.

[٣]العصر العباسي الاول،ص٢٨٣.

اذا ما ابتعدنا قليلاً عن الوصف الحماسي، وانشغلنا بالصورة المرسومة، لوجدنا ان أبا تمام يمسخ الاتجاهات والجمادات والازمنه ليحولها اشخاصاً لهم قسمات وملامح، فلم نعد نرى إتجاهات أو فصول بل صرنا نعيش مع مقاتلين يقتلون وينتصرون بل يُنحرون ويهزمون.

ويستمر في انسنة الزمان،فيقول[1]

حتى لو أنَّ الليالي صورت لغدت أفعاله الغرّفي آذانها شنقا

أنسن الليالي في البيت، وجعلها تلبس الاقراط في آذانها، قد يشادر إلى أذهاننا هذا الربط بين المراة التي تلبس الاقراط، فلماذا جعل المرأة معادلاً لليل، هل ترى ان ذلك ردّ فعل على افكار سلبية تجاه المراة، رد فعل تجاه موقف أو فكرة كانت تنتابه الليل عنده على صورة المرأة ّذلك الكيان الرقيق الذي يتناقض تماماً في بعض الوجوه مع الليل بظلمته وسواده وحرقةلياليه، فلاشك في ان هناك خيطاً خفياً يربط بين الليل والمراة في مخيلة الشاعر.

ويقول في الزمن ايضاً

كأنني حين جرَّدت الرجاء له غضاً صيت به ماءً على الزمنِ

كان الآمدي يستقبح منه أن جعل الزمن كانه صُبَّ عليهِ ماء وهي ليست صورة قبيحة، هي غريبة ولكن غرابتها لاتنفي تعبيرها عن فكرته وما احتوته من جمال))[2]

---

[1] ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي،٣٤٦/٢.

[2] الفن ومذهبه في الشعر العربي، د. شوقي ضيف، ص٢٣٧.

لو استطاع الامدي سبق عصره ومجاراة أبي تمام؛ لكان المَّ بابعـــاد هـــذه الصورة الغريبة، فالشاعر جسم الزمان وبالتالي فالجسم يبرد بالماء، فالمـــاء يبـــرد الزمان ليزيل عذباته.

إن رؤية أبي تمام ورؤياه لاتعكس الواقع، ولاتجسد الحقائق الفيزيائيـــه لتنقلهـــا عمياء صماء بكماء كما هي، بل أن ابا تمام يُنطق الصخر، ويجعل البحـــر بصـــيراً والزمان يجعله يتسمع علينا، فالشاعر لا ينظر بعينـــين مجـــردين نظـــرة العـــالم أو الفاحص، ولكنه فنان مبدع يعمل بخياله ، ويصور بجنانه، ليبدع صوراً متاحف باقية تكشف عن خبايا منسيهومساحات من مخيلة قلما يجود بها الزمان.

ذاك ما حاول البحث ان يظهره مستشرفاً مظاهر الابداع في شعره وعاكساً استغراق الشاعر في مداخلات لونية زمانية مكانية افردت له مساحات ابداعية متميزة.

المصادر والمراجع

١. بنية اللغة الشعرية، جان كوهن، ترجمة محمد الولي ومحمد العمري، دار توبقال الدار البيضاء- المغرب، ط١٩٨٦.(د.ت)

٢. ديوان أبي تمام، بشرح الخطيب التبريزي، تحقيق:محمد عبده عزام، دار المعارف بمصر، (د.ط)،(د.ت).

٣. الشعر والشعراء في العصر العباسي، د. مصطفى الشكعة،(ط٤)،١٩٧٩

٤. العصر العباسي الأول، د. شوقي ضيف، دار المعارف بمصر(ط٣)،١٩٨٥.

٥. الفن ومذاهبه في الشعر العربي، دشوقي ضيف، دار المعارف بمصر، ط٤،(د.ت).

٦. في الشعرية، د.كمال أبو ديب، مؤسسة الابحاث العربية، بيروت، لبنان ،(ط١)، ١٩٨٧.

٧. القاموس المحيط، الفيروز آبادي، مؤسسة الابحاث العربية، بيروت، لبنان، (ط٢)، ٢٠٠٣.

٨. من حديث الشعر والنثر، د. طه حسين، دار المعارف بمصر، (ط٩)، (د.ت)